خـــــانـقـــين... أمـــس والـــيـــــوم

حقد النظام المباد على خانقين لأنها ليست على مقاييسه الشوفينية، فهي مدينة للتعايش القومي بين العرب والأكراد والتركمان، وقد تعرضت هي الاخرى لمحاولات النظام المباد، المستميتة لتغييرها ديموغرافياً،

صافي الياسري

وقد نجح في بعض المجالات، وفشل في مجالات اخرى، ولكن معاناة السكان من سياسة النظام هذه معاناة تكاد لاتوصف، وسنأتي على وصفها فيما يلي: تقع خانقين الى الشمال الشرقي من بغداد على بعد ٣٥٠ كلم، وهي على بعد بضعة اميال من الحدود الايرانية-العراقية انها تصحو اليوم على معاناة أمدها اكثر من خمسة وثلاثين عاماً من الاضطهاد والقسر محاولة اعادة ترميم ماهدمه النظام المباد من معالم حياتها التي كانت مزدهرة وزاهية بسكانها المتآخين دون عقد ودون شوفينية عرقية وخانقين هي احدى المحطات الفرعية على طريق الحرير المعروف وقد امتهن اهلها التجارة ونقل البضائع وتسهيل مرور القوافل والمسافرين بين العراق وايران، وهي فضلاً عن ذلك حالها حال المدن الحدودية في العالم، لها حلقاتها التهريبية التي تدر على اقتصادها مردوداً عالياً من العملة الصعبة او العملة الاجنبية بما ينشط دور الصيرفة في المدينة ايضاً وان كان ذلك يتم بصورة سريعة فيما مضى، الى جانب ذلك كله فخانقين مدينة زراعية، وفيها بعض الصناعات اليدوية ومنها حياكة البسط والزوالي.

هناك جدول ينبع من الجبال القريبة من المدينة يقسمها الى قسمين، اكبرها القسم الشرقي الذي يعيش فيه اغلب السكان ويقع فيه سوق خانقين المتعرج الذي يعود تاريخ انشائه الى اكثر من مائة عام، والواقع ان المدينة عانت اهمالاً مستديماً من عموم الحكومات التي تعاقبت على العراق بسبب التركيبة العرقية التي ذكرناها في الاغلب، وهي لم تشهد اي تطور عمراني واحدث بناياتها يعود الى ما قبل ربع قرن، وقد قرر للمدينة ان تكون ساحة اساسية من ساحات حرب صدام مع ايران ١٩٨٠-١٩٨٨ حيث راحت القنابل تتساقط على جاراتها مندلي وجلولاء وحينما اشتدت الحرب واقتربت من حدود خانقين مع بداية عام ١٩٨٢ اضطر الاهالي الى النزوح عن مدينتهم باحثين عن مناطق اكثر امناً مثل شهربان وامام ويس وبعقوبة وصولاً الى بغداد.

يقول الشيخ عبد الله انور قائممقام خانقين بهذا الشأن: لم يكن نزوح اهالي خانقين بسبب الحرب فقط فمع بداية الثمانينيات اجبرت السلطة اعداداً كبيرة من الاهالي على مغادرة البلدة بدعوى التبعية ومنهم (الكرد الفيليون) الذين كانوا انذاك يسكنون منطقة خانقين وقد انخفض عدد السكان مع منتصف الثمانينيات الى بضعة الاف فقط فقد استمرت عمليات الترحيل على امتداد السنوات اللاحقة، أما الان وبعد ان عاد اليها الكثير من اهلها فانها تضم نحو ٤٠٠ ألف نسمة بين كرد وعرب وتركمان.

ويضيف القائممقام: ان عذابات هذه المدينة لم تقتصر على فترة الحروب بل ان الطابع العسكري لم يغادر المدينة حتى سقوط النظام، اذ عسكرت وحدات عسكرية عديدة في المحيط الاقليمي للمدينة، لكن الفرقة ٣٤ هي اكثر الوحدات العسكرية وجوداً وكان قائدها يعد عملياً حاكماً لخانقين، كما ان شوارع المدينة كانت تضج بجنود هذه الفرقة الذين يضايقون السكان ويضيفون لوناً خالياً غير محبب على الوان المدينة الزاهية اصلاً.

وشكا سكان المدينة الواناً من العذابات التي ذاقوها على يد سرايا الحرس الجمهوري بعد انتفاضه آذار، مثلما شكوا من فرعيات سياسة التغيير الديموغرافي حيث يمنع على سكان المدينة من القوميات غير العربية تملك دار او محل اقامة او عقار في المدينة، بل ان الموظف من سكان المدينة لايستطيع الانتقال اليها مالم يكن من القومية العربية.

نبيل شوكت خورشيد-معلم رياضيات-يقول عن معاناة سكان خانقين لقد خضعت المدينة لاحكام تعسفية حاول النظام المباد من خلالها تغيير هوية المدينة والتأثير على بنيتها الاجتماعية، فلم يكن مسموحاً لاي كردي ان يشتري بيتاً في خانقين فبيع اي بيت او شراؤه هنا كان يقترن بموافقة الحزب والمسؤولين والاجهزة الامنية في المنطقة حتى ان اسعار المنازل في خانقين كانت تقل عن قيمتها الحقيقية لاكثر من ٩٠٪، فكان بعض الاكراد يشترون بيوتاً في خانقين بعقد ابتدائي ولايسجلون تلك البيوت خوفاً من انتقام السلطة، ومن جهة ثانية لم يكن من حق الموظفين من اهالي خانقين التعيين في مؤسسات الدولة في المدينة فانا مثلاً رفضت كل طلباتي للنقل من الخالص الى خانقين على امتداد خمسة عشر عاماً لانني كردي ولاامثل توجهات السلطة في المدينة.

ويروي لنا سيروان صلاح الدين ابراهيم-١٨ سنة-جانباً من رحلة القمع التي تعرضت لها عائلته طوال ست سنوات فيقول: بتاريخ ١٩٩٧/٥/١٧ طرقت بابنا دورية تضم رجال الامن والبعثيين في المنطقة وابلغونا ان نهيئ انفسنا للرحيل من خانقين خلال ٤٨ ساعة فقط ومن دون ان نعرف اين سنتجه او ماهي التهمة المنسوبة الينا عائلتنا كبيرة ومكونة من ثمانية افراد، الاب والام وستة اطفال لم يتجاوز اكبرهم سن الثالثة عشرة، فاستجبنا مكرهين للامر الواقع وجاءت شاحنة عسكرية (ايفا) في اليوم التالي لنقل اثاثنا وقبل ان نمضي في رحلتنا الى المجهول قدم لنا احد البعثيين ورقة هي عبارة عن عقد بيع الدار التي كنا نسكنها الى شخص مجهول وطبعاً بسعر لايساوي ربع قيمة الدار الحقيقية، ولم يكن امام والدي الذي كان يعمل يومها موظفاً في بريد خانقين غير التوقيع، فهو يعرف جيداً ماذا يعني غضب السلطة اذا مارفض.

ويضيف سيروان: اخذتنا الشاحنات العسكرية مع مائة عائلة اخرى الى مدينة النجف بينما اتجهت شاحنات اخرى بمائة عائلة اخرى الى الرمادي، وفي النجف اضطررنا لتأجير بيت متواضع في اطراف المدينة والعمل بشتى الاعمال وطوال ست سنوات لم تكف الاجهزة الامنية عن مطاردتنا، وحين نسألهم عن سبب هذا الاضطهاد يقولون لنا ان لكم اقارب من المعارضة العراقية في الخارج.

الخدمات

الكهرباء والماء والخدمات الصحية كانت هي الاخرى ضمن سياط العقاب الجماعي ضد اهالي خانقين فطوال اكثر من ١٢ سنة عاش السكان حالة اشبه بالظلام الاجباري ولم يكن من حقهم حتى شراء المولدات الكهربائية.

يؤكد الشيخ حسين علي احمد هذه الحقيقة ويضيف: اهالي خانقين كانوا على الدوام عرضة لابتزازات الوحدات العسكرية القريبة، فكل الامكانات كانت تسخر لتلك الوحدات، حتى ان استخدام المولد الكهربائي كان من الممكن ان يستدعي اهتمام احد قادة تلك الوحدات فيأمر قواته بمصادرته او محاولة ابتزاز اصحابه بتهديدهم بابنائهم.. وهكذا!.

أما الماء والخدمات الصحية وبقية الخدمات فقد كانت شبه متوقفه، فالمدينة عانت من الاهمال المتعمد طوال السنوات الماضية فلم تنفق الدولة الاموال اللازمة لبناء شبكة ماء او مجار نحن في امس الحاجة اليها.

وتؤكد السيدة ام جوان-موظفة في اتصالات خانقين-قائلة: عانت خانقين الكثير في المرحلة السابقة وهذا لايعني اننا حققنا الان مانتمنى، لكننا بخلاصنا من قيود النظام المباد انطلقنا مع الركب العراقي باتجاه الانسانية والحضارة والتقدم، ان مدينة خانقين تسير اليوم بالاتجاه الصحيح فالخدمات بدأت تعود تدريجياً وتتطور وتعيش خانقين الان وضعاً امنياً افضل من العديد من المدن العراقية.

المواطن محمد احمد غيدان حدثنا عن هذا الموضوع قائلاً: الحالة الامنية في خانقين مستقرة جداً فحوادث السرقة او السلب التي تحدث في مدن اخرى معدومة هنا خاصة بعد اعادة تأهيل الشرطة في المدينة وقد الغي حظر التجوال في المدينة منذ العام الماضي والمحال تفتح اليوم الى ساعة متأخرة من الليل: شرطي المرور.. مؤيد علي يؤكد هذه الحقيقة بالقول: رغم قلة عدد السيارات في المدينة مقارنة بالمدن الكبيرة فان خانقين اليوم تعد نموذجية من ناحية تطبيق القوانين المرورية فقد اعيد عمل شرطة المرور في المدينة بطريقة تفوق ما كانت عليه في السابق ونحن نقوم بواجباتنا على الوجه الاكمل.

وخانقين الى هذا وذاك وعداهما تعد مدينة مثالية للسياحة ففي محيطها بيئة مناسبة لانشاء مجمعات سياحية ناجحة كما يؤكد المحامي اسو الجاف مضيفاً: منذ سنوات طويلة ومدينة خانقين تستقطب الباحثين عن البيئة الطبيعية الجيدة للسياحة وميزة مدينتنا انها تجمع مميزات سياحية ممتازة في كل المواسم بالاضافة الى الطبيعة التاريخية للمدينة واعتقد ان المستقبل القريب سيفتح باب الاستثمار السياحي هنا.

نترك لاهل خانقين احلامهم الجميلة بغد مشرق ونغادر ونحن نلمس لمس اليد كيف انهار الطغاة وانتصرت الشعوب وها هي المدن المسحوقة تتصدر ركب الحرية والأعمار والتقدم الحضاري.

في صلب الموضوع

المغترب وحاضرة الدنيا-بغداد

بغداد/ الحبيبة التي يعشقها القريب والبعيد، ويشتاق لرؤيتها القاصي والداني، ويخطب ودها ابنها والغريب!

ما علتها اليوم وقد اضحت كئيبة، رثة، دميمة، متسخة؟ لماذا فقدت كل ذلك البريق الأخاذ؟ هل هي الجانية على نفسها ام جنى عليها احد؟

كلنا يتذكر قصيدة المرحوم الشاعر عبد الوهاب البياتي، في خمسينيات القرن الماضي، وهو يناجي حبيبته بغداد من بلاد الغربة ملتاعاً فيقول:

بغداد-برحنا الهوى
لكن حراس الحدود
أبداً هم حراس هاتيك الحدود!

أ.د.محمد يونس

يضيع المغترب وسط هذا الزخم المتلاطم من المعوقات التي تضطره في النهاية ام الى العودة خائباً من حيث اتى او الاستسلام للظروف المحيطة فيخوض من الخائضين في بحر الفوضى والتردي

ثم يقول:

يا من أناجيها
فتسألني:
لماذا لا تعود؟
أأعود
يابغداد!
لكن حراس الحدود،
أبداً هم حراس هاتيك الحدود

وهكذا يعود المغترب العراقي وهو يحلم بالالتماء في احضان حبيبته-بغداد، لكن يتلقى الصدمة إثر الأخرى فلا يرى أمامه سوى الانقاض والظلام، ولايجد غير الفوضى والتجاوزات ولا يشاهد غير مناظر العنف والقتل والدمار!

يرجع الغائب، الذي غادر وطنه هرباً من جحيم البعث وجرائم صدام، ليقدم كل ما لديه من علم وخبرة وامكانات لوطنه الجريح ولشعبه المجاهد لكنه يجد العثرات والعقبات والاحباط بانتظاره، فالروتين القاتل والبيروقراطية الجوفاء والحقد الدفين يواجهه بكل عنف وصلافة ويتلفت فيما حوله فلا يجد من يشتكي اليه ولا من يدافع عنه وعن حقوقه.

يضيع المغترب وسط هذا الزخم المتلاطم من المعوقات التي تضطره في النهاية اما الى العودة خائباً من حيث اتى او الاستسلام للظروف المحيطة فيخوض من الخائضين في بحر الفوضى والتردي، فان كان مبدئياً، مؤمناً بشعبه ووطنه، لايطاطئ الرأس للاشرار ولا يخضع للابتزاز، فعليه ان يكون على أهبة الاستعداد لتلقي الضربات! وتبقى المسألة مرهونة بمدى قدرته على الصمود وما يمتلك من قوة المواجهة-وكان الله في عونه!.

أتمنى على السلطة الوزارة القادمة ان تكرس بعض الجهد لهذه لشريحة الكبيرة والأهمية بالنسبة للمجتمع، فهي ثروة كبيرة، صرف الوطن دم قلبه لتعليمها وتأهيلها، وعند نضوجها غادرتنا مكرهة، وما علينا الآن، وهي تتحرق شوقاً للعودة الى أوطانها، إلا أن نفتح امامها المجالات ونقدم لها التسهيلات ونمنحها فرصة العطاء في مجالات البناء والتعمير-التي نحن بأمس الحاجة اليها؟

والحكومة العراقية تتعامل بلامبالاة

الكفاءات العراقية: وداعاً ياوطن!

ترجمة مفيد الصافي

في بغداد أغلقت عيادة ابرز طبيب في جراحة القلب ابوابها، ولصقت لافتة مكتوبة بخط اليد على الباب الخشبي للعيادة الخاصة، تبين إن على مرضى الدكتور عمر الكبيسي زيارته في عمان، وهنالك في الاردن، كان الدكتور الكبيسي الذي يبلغ الثالثة والستين من العمر يقضي اغلب اوقاته جالسا في احد المقاهي مع زملاء له من الأطباء والاساتذة العراقيين، كان الدكتور عمر محبطا وهو يراقب السقوط البطيء للتعليم الطبي الذي أسهم في إنشائه خلال ٣٦ عاما من مهنته، زملاؤه من الأطباء يغادرون وطنهم خوفا على انفسهم، أما الأطباء الأصغر سنا فيبحثون عن دول اخرى ليعملوا فيها، ولايتوقف الوضع عند ذلك بل ان المرضى يغادرون كذلك، فهم لم يعودوا واثقين كثيرا من الرعاية الطبية التي يتلقونها هناك، قال الكبيسي عبر التلفون (اعتقد ان الامر جزء من عملية تهدف الى تدمير العراق، ان الوضع خلال الأشهر الستة الماضية كان سيئا للغاية، لم يكن باستطاعتنا الاستمرار في العمل).

لقد هجر الدكتور الكبيسي بغداد في شهر مايس، بعد ان تلقى هو وتسعة من زملائه، رسائل تهديد، كتبت بخط صبياني، تحذرهم من انهم سوف يقتلون اذا لم يتوقفوا عن العمل، لقد كان هو وزملاؤه أهدافا للتهديد من قبل، ولكن التهديد الاخير كان مصحوبا بلهجة استعجال خطرة ومنذرة كما قال، ان المهنيين والمتخصصين من اطباء ومحامين وأساتذة وتجار، أصبحوا هدفا للجماعات السياسية الغامضة التي تخطفهم او تطالب بفدية عنهم او حتى قتلهم، كما قال البعض، لقد هرب العديد منهم، حتى اصبح العراق على حافة ان يخسر خلاصة الكفاءات، والتي هو بأمس الحاجة إليها في سبيل بناء مجتمع مستقل جديد.

قال عمر حسن الفايد، مساعد عميد في جامعة بغداد للعلوم السياسية (ان ما يحدث هو عملية امتصاص للعقول، يمكن ان تؤدي الى تكوين مجتمع بلا معرفة، والا كيف يمكن لمجتمع كهذا ان يحقق تقدما) يتقاطر مهنيون وتجار لديهم الامكانية على السفر الى الاردن والى سوريا ومصر او الى بلدان غربية في حالة امتلاكهم تصريحات بالاقامة.

اما المتبقون منهم يف العراق فيقولون بأنهم يشعرون بالعزلة.

احمد مير علي ٢٧ عاما، الطبيب الذي ترك وحيدا ليدير المستشفى الخاص حيث بقي مكان الطبيب الكبيسي شاغرا، قال (معظم الاختصاصيين العاملين هنا والمسؤولين عن توفير الرعاية للمرضى تركوا المكان أيضا، اختصاصيون حصلوا على شهاداتهم من بريطانيا او من اميركا، ومنهم اساتذتي، كما ان بعض المرضى اخذ يتوجه الى ايران للعلاج، وهذا لم يكن يحدث في السابق).

وقالت ايهان نبيل، ٢٢ عاما التي على وشك التخرج في جامعة بغداد لتحمل شهادة في العلوم السياسية (طبعا سوف أغادر لو استطعت، لا يوجد سلام هنا او استقرار ولا وظائف، ان زملائي في ساحة الكلية، واحة السلام في مدينة يعتريها العنف، يتفقون معي).

الهروب الجماعي ليس أمرا جديدا على البلد، فقد كان العراقيون يفعلون ذلك أيام نظام الطاغية صدام، اذ هربت العديد من العائلات الى إيران، وسوريا او الى الاردن، وانتظر الناس سنوات عديدة من اجل ان يحصلوا على اذونات تمكنهم من الدراسة الجامعية او البحث عن فرصة عمل في بلد اخر، وكان صدام في ذلك الوقت يقبض على عائلاتهم كرهائن من اجل ان يضمن عودتهم، ثم تقاطر اولئك المهجرون الى العراق بعد سقوط صدام، ولكن عدم الاستقرار والتواصل اليومي للعنف جعل البعض يناقشون مسالة عودتهم ثانية والاخرون من الذين بقوا بعيدا خلال حكم صدام، قالوا أخيرا، وداعا الى بلدهم، أعداد من العراقيين من الصعب احصاؤها، ربما لان اولئك الذين يغادرون عادة، يذكرون الى موظفي الجوازات العراقية بانهم ذاهبون في زيارة قصيرة، فيرحلون من دون ان يخبروا أصدقاءهم او جيرانهم، بعد ان حملوا بعض الأشياء من منازلهم، واقفلوا الابواب ليمضوا بعيدا.

قال مسؤول في قسم الاحصاء التابع الى وزارة الداخلية بان نسبة العراقيين الذين يعبرون الحدود الى الاردن تراوحت بين ٢٠٠ الى ٢٥٠ شخصا في اليوم-من تموز ٢٠٠٤ الى حزيران ٢٠٠٥، وان عدد الذين عبروا الحدود في شهر تموز الاخير-من دون ذكر اعداد سواق الشاحنات او التجار-تصاعد الى ١١٠٠ شخص في اليوم الواحد حسب ما أكده المسؤول.

قال فايد (انهم ربما سيعودون الى الوطن حينما يستقر الامن فيه) او ربما لن يعودوا ابدا، لقد تصاعدت اعداد المخطوفين الى أرقام خيالية منذ سقوط النظام، حتى الاطفال يتم اختطافهم ليتم مقايضتهم في اليوم نفسه، مقابل حفنة من الدولارات من آبائهم المعذبين.

ويشكل هدفا للخاطفين، اي شخص تظهر عليه علامات النعمة، من اجل الحصول على صفقات مالية ضخمة، وغالبا هم من المهنيين والتجار، كما ان المبلغ المعطى لن يكون ضامنا ان المخطوف لن يتم قتله او تصفيته، بعض الدوائر تذكر ان العشرات من الضحايا يتم العثور عليهم يوميا من دون ان يذكر عنهم شيء.

وتضاعف الخطر بسبب ما يفعله المتمردون والذين يهدفون الى تخويف أفراد المجتمع عبر التفجيرات او القتل او الاختطاف-او التهديد.

ويتعرض الاساتذة الى التهديد ويقتل الاطباء في عياداتهم وأصبح الموت شيئاً عاديا، البعض يظن انه هذا امر متعمد لمحاولة إفراغ العراق من نخبه.

وهذا ما يظنه الكبيسي، الرئيس السابق للكادر الطبي العسكري، ففي شهر نيسان الماضي، سلمه مساعده رسالة مكتوبة، وصفها بانها مكتوبة (بخط عربي سيئ) تهددهم جميعا، حتى السادس من مايس-مدة عشرة ايام- من اجل مغادرة العراق، لقد عرض الرسالة على المسؤولين، والذين ظنوا بانه كتبها بنفسه، ولكن في ٨ مايس كان الكبيسي قد وصل الى الاردن.

اولاده الثلاثة وابنته، وجميعهم من الاطباء، لم يخاطروا بالبقاء في العراق.

قال (كل يوم نجلس هنا، عشرة او اثنا عشر منا، أساتذة لايفعلون شيئا سوى التحدث عن الاوضاع) قال الكبيسي من عمان (ان الجلوس هناك كأنه الموت، ولكن مرضاي يقولون ان علي ان لا أعود، في الواقع انني لم اكن استطيع ان ادفع الفدية التي يطلبها الخاطف، وفي هذه الحالة سوف يكون مصيري القتل).

وقال (ان مراحل التعليم والتدريب الطبي تم تهشيمها، ربما لا نستطيع إصلاحها، مدارسنا الطبية وأطباؤنا معروفون في العالم العربي، والدراسة الطبية متميزة في العراق معتمدين على النظام البريطاني.

وكنا نعطي دراسات متقدمة وبضمنها العديد من الاختصاصات انهم الان يفرغون كل ذلك من الوطن

قصة اخرى

كانت ام مصطفى وزوجها التاجر يأملان بالبقاء في العراق ولكنهما تركا هذه الفكرة حينما دخل اللصوص الى غرفة نومهما وقبضوا على ولدهما وأوثقوه، واضعين فوهة بندقية على رأسه وهم يطالبون من العائلة ان تسلم لهم كل ما يملكون من الذهب والجواهر.

قالت ام مصطفى ٢٧ عاما والتي لا تزال تشعر بالخوف من ان يهاجمها احد وتحاول ان تخفي هويتها دائما (لم نكن نريد ان نغادر العراق، كنا عائلة سعيدة جدا، عائلة غنية، زوجي كان يملك عملا جيدا، كنا نملك مالا وفيرا، ومنزلا وسيارة وخدما).

لقد أرهبت العصابة العائلة مدة ساعتين وأكثر وهددوا بقتل او خطف ابنهم ذي السادسة من العمر، بينما كان ابنهم ذو الربيعين من العمر يصرخ باكيا، بعدها انهالوا على زوج ام مصطفى بالضرب ثم غادروا المكان حينما تأكد لهم بأنهم عثروا على كل المجوهرات والسلاح والمال في المنزل، وتركوا الزوجين موثقين في أربطة من البلاستيك بعد ان حجزوهما في غرفة نومهما لقد قالوا بأنهم سيحرقون المنزل حينما يغادرون.

قالت ام مصطفى (ربما الله أراد ان يمنحنا حياة اخرى، انهم لم يقتلونا) واخيرا قررت هي وزوجها الانتقال الى الاردن ولكنهما سمعا ان السلطات الاردنية قلقة حول تدفق العراقيين اليها، مما جعل معيشة العراقيين اشد صعوبة ولذا قررا ان يشتريا تذاكر سفر الى مصر بدلا من الأردن.
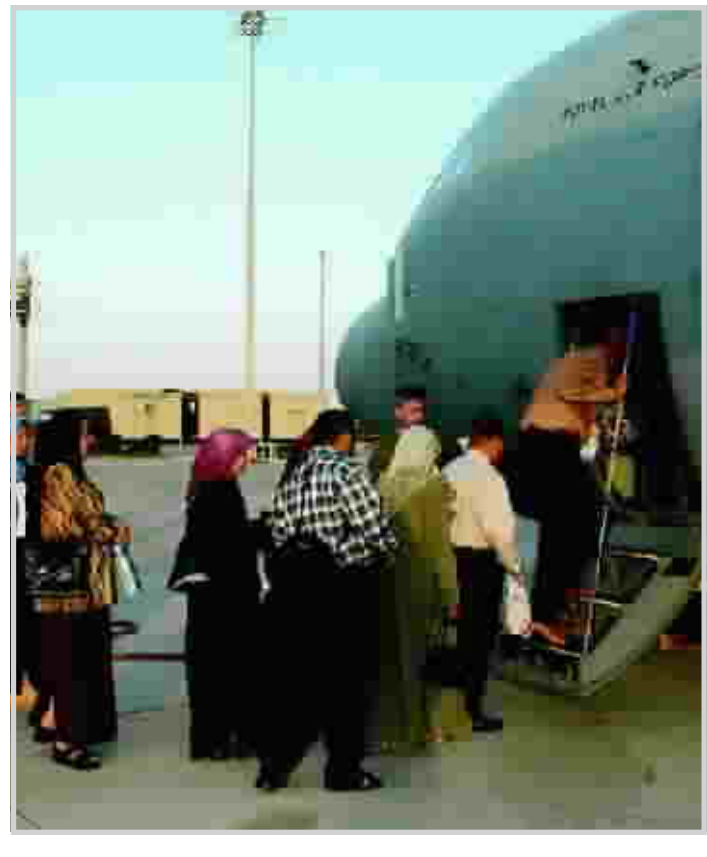
قالت ام مصطفى (لانعرف كيف سنعيش هناك؟ سيكون على زوجي ان يجد عملا جديدا، وسأضطر انا الى العمل، ان هجر الوطن ليس بالأمر الهين، وكل أمر يضطرك الى بدء حياة جديدة، انه صعب جدا ولكنه افضل من البقاء في بلد حيث لا امان فيه، وقالت ام مصطفى (لقد مررت بأربع حروب ولكني أبدا، ابدا لم اكن افكر بالمغادرة، لقد أصبحت الحياة في العراق غير آمنة، لم اكن احس بالامان في غرفة نومي او في البلد